الإبل ثروة العرب وتراثهم

حين عرف العرب للإبل حقها.. حملت المسلمين من الجزيرة إلى جهات الدنيا الأربع.. وكانت من أدوات نصرة الدين

د. مصطفى فايز

أستاذ الطب البيطرى

جامعة قناة السويس

الإبل جلودها أقوى وأسمك جلود ولحومها أفضل لحوم، وبعرها حطب وأثمانها ذهب، ما ذكر الناس من النعم خيراً من الإبل؛ إن حلبت أروت، وإن ملكت أغنت، وإن قاتلت أعزت، وإن داوت أبرأت، فسبحان مبدعها، وتبارك خالقها، حين جعلها آية من آياته: ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾.

ما زالت الإبل وستظل إلى يوم الذين إعجازاً من آيات الله العظمى، النظر إليها عبادة، والتعامل معها عبرة، والتجارة فيها ثروة، فى طباعها الإخلاص والفطنة والوفاء، وفى أنوفها الشموخ والكرامة والإباء، تطيع من أكرمها ولو كان طفلا صغيراً، وتثأر ممن أهانها ولو كان بطلا كبيراً، فحين عرف العربى المسلم للإبل حقها حملت الإبل الإسلام من جزيرة العرب إلى أقصى حدود المغرب، وكانت سبباً فى نصرة المسلمين يوم أن شق بها خالد ابن الوليد رضى الله عنه قلب الصحراء القفر الموحشة من العراق إلى الشام؛ ليكسر هجوم الروم عن المسلمين.

ومع إيقاع خطوات الإبل والحداء لها ولدت موسيقى الشعر العربى بأبحره الستة عشر، وبالنوق العصافير من الإبل افتخر الأمراء والملوك، فكانت مضرب الأمثال، غلا ثمنها وعلا قدرها، حتى صارت مهرًا لأجمل الحسناوات، قهرت الإبل الصحراء، تحمل التجارة وتجوب قارات العالم القديم بالخير فى الحرب وفى السلم عبر القرون، بل ما زالت الإبل الهجانة قوة فعالة لرجال سلاح الحدود حتى اليوم، فى كثير من دول آسيا وإفريقيا.

لذا لم يهتم العرب بأى حيوان فى البيئة العربية اهتمامهم بالإبل، فهى عتادهم الذى لا يخذلهم يوم الطعن، ومهر عروسهم يوم السعد، فصاحب الإبل لا ينقصه بوجودها شىء، فوبرها كساء ولحمها غذاء وحليبها دواء، وهى سفن الصحراء.

أسماء الإبل بحسب ألوانها:

من مظاهر الاهتمام الكبير الذى يبديه العرب للإبل ما تعارفوا عليه منذ القدم من تسمية ألوان الإبل بأسماء خاصة تختلف عما تعارف عليه الناس من ذكر الألوان الصريحة التى اعتاد عليها الكثيرون، وهذه أهم هذه التسميات فى البادية العربية اليوم، تعمدنا أن نأتى عليها حتى نعود أنفسنا وإخوتنا الكرام على لغتنا الجميلة، فلا يجب أن يقول الواحد منهم عن الناقة الوضحاء هذه ناقة بيضاء! أو عن الناقة الملحاء هذه ناقة سوداء! لذلك فيما يلى نعرض أسماء الإبل، وتذكرة بهذه التسميات الجميلة التى أوشكت أن تندرس:

- **الوضحاء/ عفراء:**

والجمع وضح، والناقة الوضحاء ناقة ناصعة البياض، وعيناها مكحلتان بالسواد، وهى من أحب الإبل إلى العرب فى القديم والحديث.

- **البلقاء:**

لها نفس لون الوضحاء الناصع إلا أن عيونها حمر.

- **الملحاء/ مجهم:**

والناقة الملحاء ذات وبر أسود اللون.

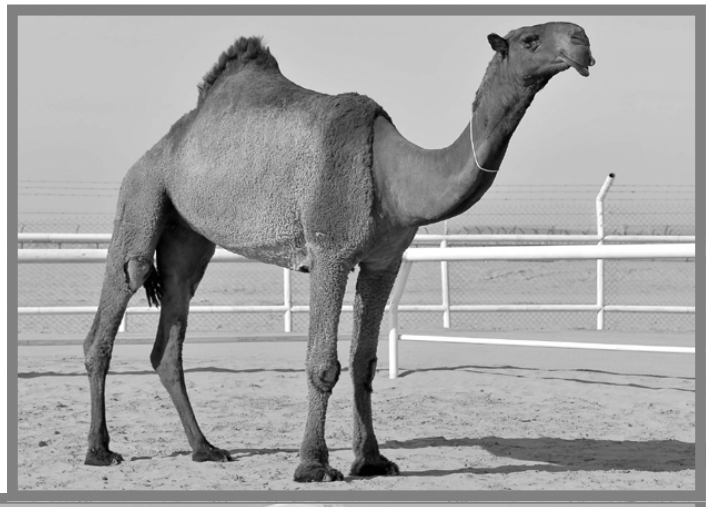

لم يهتم العربى بحيوان فى بيئته مثلما اهتم بالإبل.. إذ هى عتاده يوم الطعن.. ومهر عروسه يوم السعد.. ووبرها كساء.. ولحمها غذاء.. وحليبها دواء

• الصفراء:

هى ما كان لونها ضاربًا إلى الصفرة.

• الشعلاء:

يجمعونها: شعل، والشعلاء ذات اللون البنى الفاتح.

• الشهباء:

الشهباء إبل رمادية اللون، وهى قليلة.

• الحمراء:

والجمع حمر، ويكون وبر هذه الناقة ضاربًا إلى الحمرة الفاتحة.

• الصهباء:

والصهابة اختلاط السواد بالحمرة، فرأس الوبرة وباقى لونها فيه حمرة؟ وهى من إبل العرب المجاهيم، وقد تسمى المرأة صهباء والرجل صهيبًا.

• العطراء:

هى ناقة ذات لون يميل إلى الحمرة فى البطن وأعلى الرجلين، وهو من الألوان المحببة فى الإبل، وهى إبل جميلة المنظر جمال الحسان، فالحسناء التى تضع الحمرة فى خدها لا تضعها غالبًا من غير طيب فهى حسناء عطراء.

• الحجلاء:

وهى ناقة ذات حمرة مع بياض فى البطن والقوائم.

• الشقحاء:

الناقة الشقحاء الناقة المختلطة لون الوبر؛ ففيه الأبيض والأسود والأصفر.

• الزرقاء:

والجمع زرق، والناقة التى توصف بأنها زرقاء ذات شعرة متعددة الألوان، فالشعرة الواحدة من وبرها ذات لونين فجزء من الشعرة أبيض وجزء أسود منها.

• المغاتير:

أما الإبل المغاتير فهى الإبل الوضح، وعكسها الإبل المجاهيم أى الإبل الملحاء أو ذات اللون الأسود.

أجمل أسماء النساء:

وقد بلغ من حب العرب للإبل أن كثيرًا من الناس يسمون بناتهم اليوم ببعض أسماء الإبل، فكثير من الإناث أسماؤهن (وضحا،

من مظاهـــر اهتمـــام العـربى بالإبل.. تسمية بنـــاتهم بأسـمائها.. تيمنًا بنجابتها وجمالها وصبرها وعطائها

وشقحا، وعفرا) بتســـهيل الهمزة، فهى من أجمل أسماء البنات.

أسماء الإبل بحسب أعمارها:

يكاد يكون للوليد من الإبل اسم جديد كل ستـة أشـهر، وذلك لدى أهل الإبل الخـبـراء باقـتنائهـا وتربيتـهـا، وهذا استـعـراض لأهم أسماء الإبل فى البادية:

١- الحوار:

حـينمـا تلد الناقـة يسـمى ولدها الحـوار بضم الحـاء، ويبـقى هذا الاسم مـلازمًـا له على مدى مـا لا يقل عن ستـة أشـهـر. ومن أمـثال العرب القديمة: «حرك لها حوارها تحن» فمن المشهور أن الناقة لا تدر الحليب إلا عندمـا يقـتـرب منهـا صغيرها محاولا رضاعها؛ فتدر له حنوًا عليه؛ لذا يسـتغل أهل الإبل صـفـة الرحـمـة التى أودعـهـا الله تعـالى هذا الحـيوان الأعـجم فـإذا أرادوا الحليب جـاؤوا بحـوارها ليخـدعوا به أمه، فـيضـعـوه عندها ويدعـوه يلقم شطرًا من ضـرعـهـا، فـتـبـدأ بالحليب بمجـرد مـا يمس «ديدها» ثم يحلبـون هم من الشطر الثانى، بل كثيرًا ما يبعدونه عنها بعـد أن يرضع قليـلا؛ لينفـردوا بالحليب دونه.

٢- المخلول:

المخلول من الإبل مـا بلغ سـتـة أشهر ويبقى يرضع أمه حتى يكمل السنة الأولى من عـمـره، وسـمى مخلولا لأن صاحبه يضع له أعوادًا خـشـبـيـة فى أنفـه تسمى الخـلال، وعندمـا يرضع تؤذى هذه الأعـواد ضرع أمـه فتضطر لدفعـه لإبعاده عنها، إذا كان صاحبها يريد فطام ولدها أو يكون مـحـتـاجًـا إلى حليبها.

والخـــلال عـــود من الحطب له رأس مـدبب وقـاعـدة مـدورة، يدخل رأس العـــود من أنف الحـــوار المخلول ثم يثـبت بخـيط حـتى لا يسـقط من أنفه بينما تبقى قـاعدة العود من الداخل.

فـإذا أراد رضـاع أمـه والمغطى ضـرعـها بالشمالة التى تحول بينه وبين حليبها فإن العود المثبت فى أنفـه سيؤلمه، كما أنه قد يؤلم الأم أيضًـــا برأس هذا الخـــلال مما يجـعلها تدفعـه بعيدًا عنها، ولولا هذا الخـلال لمزق الشـمـالة بفـيـه وهجم على ضرعها يلتقمه.

٣- المفرود:

ويكون كـذلك من نـهـاية السنة الأولى إلى نـهـاية السنة الثـانيـة.

وسمى مفرودًا لانفراده عن أمه واعتماده على نفسه فى الغذاء.

٤- اللقى:

ويسمى كذلك لأنه يلتقى عند أمه بالحوار الجديد الذى ولدته. فيحتل هذا الحوار الجديد مكانه عندها.

٥- الجذع:

ما استكمل أربعة أعوام ودخل فى الخامس، بينما يكون الجذع من الخيل والبقر ما استكمل سنتين ودخل فى الثالثة، والجذع من الضأن ما بلغ ثمانية أشهر أو تسعة.

٦- الحق - الحقة:

الحقة ما دخل فى السنة الرابعة وأمكن ركوبه أو الحمل عليه. وسميت كذلك لأنها مستحقة للفحل.

٧- الثنى - الثنية:

الثنية عند أهل الإبل من البدو ما بلغت ست سنوات، وهى التى تطلع ثنياتها المستديمتان الاثنتان بعد سقوط أسنانها اللبنية.

٨- الرباع:

وهو ما دخل فى السنة السابعة، وسمى كذلك لطلوع رباعيته أو أسنانه الأربع السفلى.

٩- السديس:

هو ما استكمل أسنانه الست السفلى الدائمة والمقصود الرباعيات مع النابين.

١٠- الفاطر:

الفاطر هو كل مسن من الإبل.

أسماء الإبل بحسب مرات الولادة:

قد يحسب أهل البادية أعمار نياقهم بحسب عدد مرات ولادة الناقة، فيقولون: بكر ثم أم ثانى، وأم ثالث، وأم رابع، وأم خامس، وأم سادس.

ولا تزيد أعداد ولادة الناقة على عشر ولدات تقريبًا كحد أقصى لها.

ويعتبر البدو مدة حمل الناقة حتى تلد لا تزيد على أربعة عشر شهرًا فى أطول الأحوال، فتبقى عندهم سنة لقاح أى حاملا، ثم تبقى شهرين مخاضًا أى يتوقع فى أى وقت فيهما أن تلد.

نذكر هنا كلمات للإبل تدل على صفات فيها منها:

١- البكرة:

بكرة الإبل والمذكر بكر: الناقة الشابة الصغيرة السن، والتى تلقح لأول مرة.

٢- المجسر:

المجسر من الإبل الناقة التى تطلب الفحل.

تعد الإبل عالمًا آخر بالنسبة للبدو فى جزيرة العرب.. يقدرونها ويعتزون بها.. ويطلقون عليها التسميات الكريمة.. ويتفاعلون معها كأنها من أفراد القبيلة

٣- المعشر:

وتسمى الناقة أيضًا إذا ضربها البعير وبدأت فى الحمل المعشر؛ حيث لا تقبل الفحل بعد ذلك.

٤- اللقحة:

اللقحة الناقة فى بطنها جنينها، وظهر لقاحها ويكون الظهور واضحًا بعد ثلاثة أشهر.

٥- الخلفة (بتفخيم اللام كعادة العامية):

الخلفة الناقة التى بها حليب ولها ولد، فهى ناقة والد، وتسمى خلفة لمدة ستة أشهر، وبعد ذلك تسمى عشراء؛ لاستعدادها لضراب الفحل.

٦- الفاطر:

الفاطر من الإبل ناقة طاعنة فى السن، وعلى هذا تكون عكس البكرة.

٧- الذلول:

الذلول الناقة التى تركب وسميت كذلك لأنها مذللة مطيعة سبوق، وهى من حرائر الإبل أو من آصالها، وتتميز برشاقة جسمها وصغر رأسها ودقة أطرافها، وكثيرًا ما تكون حمراء اللون.

٨- الرحول/ ركبى:

الرحول بعير من غير الحرائر يسمى الرحول للناقة، والجمع رحايل، ويستخدم فى الحمل والتنقل.

٩- الصعب:

البعير الذى يصعب استخدامه بسهولة، ويمتنع عن ذلك، فهو لم يعسف أى لم يذلل.

١٠- القعود:

القعود ذكر الإبل صغير السن.

١١- الفحل:

والفحل ذكر الإبل، ويكون هياجه إلى النياق فى موسم التناسل وفى وقت الوسم ويسمى كذلك من عمر خمس سنوات فأكثر، وذلك إذا عهد فى هذا البعير قوة ونجابة.

أسماء أجهزة الإبل وأدواتها

● الشملا:

الشملا قطعة يصنعها البدو من الوبر فتوضع على ضرع الناقة حتى لا يرضعها ولدها أو ولد غيرها.

● الصرار:

الصرار أعواد من الخشب تصر على حلمة كل شطر من أشطر الضرع الأربعة لمنع ابنها من الرضاع، إذا ما أرادوا توفير الحليب أو فطم الحوار.

● الحداجة/ المسامة:

الحداجة أعواد من خشب تصنع على شكل مثلث قاعدتها مفتوحة، وتوضع فوق ظهور الإبل لحمل الأمتعة والأرزاق – الطعام– وتوضع على سنام البعير وعند الترحال.

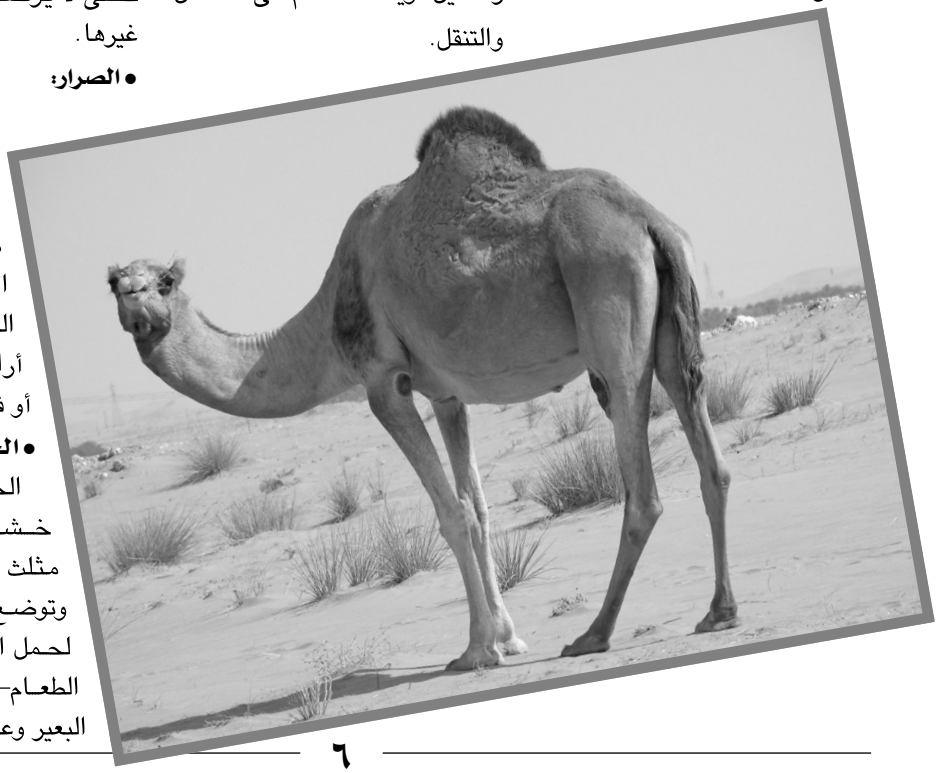

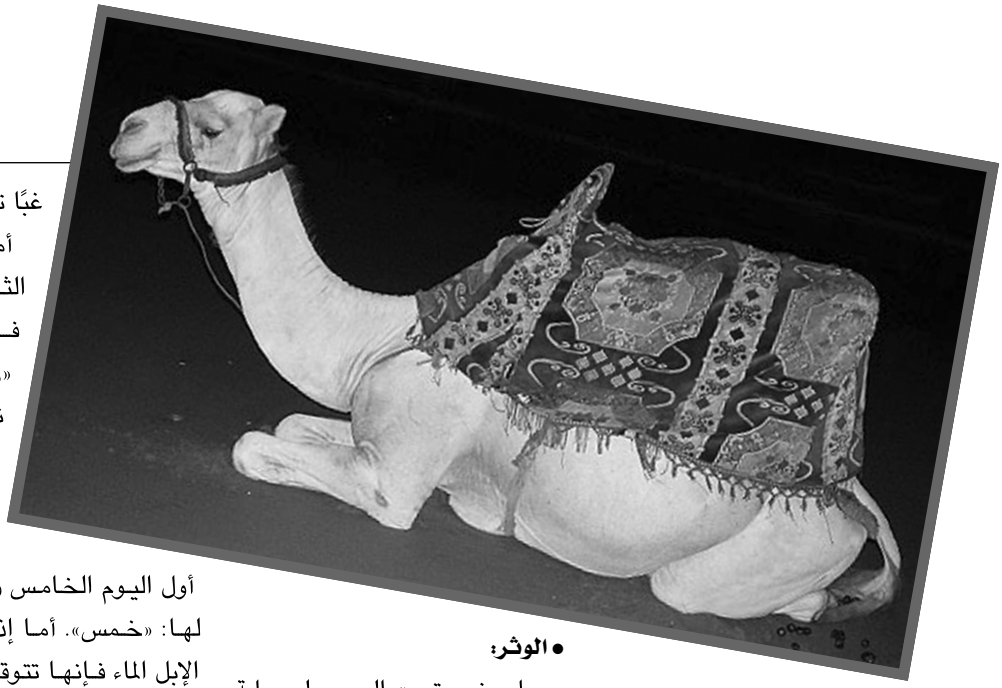

• الشداد:

الشداد قريب الشكل من الحداجة، ولكنه يصنع لاستخدام شخص، ويركب فوقه، وتكون مقدمة الشداد على غارب البعير أمام السنام، بينما تكون مؤخرته خلف السنام.

• المسامة:

قريبة من الحداجة.

• الكتب:

نوع من الشداد ولكنه صغير الحجم وهو قريب من الحداجة ويوضع على الغارب.

• الحواية:

تقوم مقام الشداد وتستخدم للركوب، وهى عبارة عن طبقة من القماش السميك توضع فوق ظهر البعير، فهى بهذا الشكل أبسط ما يوضع على ظهر الإبل.

• المقصورة - مقصر/ الغبيط/ الظلة:

توضع فوق الشداد، وهى مثل الهودج للنساء.

• الوثر:

ما يوضع تحت السرج لحماية البعير من الاحتكاك (ما يوضع تحت الشداد أو المسامة أو الحداجة) وتكون على شكل وسادتين صغيرتين محشوتين بالقطن أو بالحشائش؛ لحماية ظهر البعير وجانبيه من خشب المسامة أو الشداد. وهو نفس المعنى فى اللغة، فالوثر فى المعجم الوسيط الفراش الوطىء.

أسماء الإبل نسبة إلى نظام شربها للماء فى الصحراء:

يمكن للإبل أن تصبر على العطش إلى اليوم الخامس، فإذا شربت وأخذت تتجه نحو المرعى يقال لها: «مصدرة»، أما اليوم التالى لشربها فيقول راعيها إنها «غابة» من الغب وهو تعبير صحيح، يقال: غبت الماشية فى الورد غبًا: شربت يومًا وتركت يومًا، مثلما نقول: غب الرجل فى الزيارة أى زار فى الحين، ومنه قولهم: «زر غبًا تزدد حبًا».

أما اليوم الثالث لشربها فيقال لها: «ربع»، وفى نهاية اليوم الرابع تستعد للشرب مع أول اليوم الخامس وحينئذ يقال لها: «خمس». أما إذا تأخر ورود الإبل الماء فإنها تتوقف عن الرعى و«ترزم» بمعنى تحن بصوت خافت؛ حيث يمسى المكان التى تقف به «المظمى» حيث تبدأ منه الاتجاه نحو المورد. وإذا كان مرعى الإبل خصيبًا أخضر فإنها تبقى بغير حاجة لشرب الماء لحوالى ثلاثة أشهر ما دام العشب طريًا لم يجف؛ حينئذ يقال الإبل «تجزى» بمعنى أن العشب الأخضر أغناها عن الماء.

النداء على الإبل والكلام معها:

النداء الذى تعود صاحب الإبل على مناداتها به، فأحبته وتعودت عليه، وتعلقت به يسمى عند البدو المشياعة فما تكاد الإبل تسمع صوت صاحبها يناديها حتى تتوقف عن الشرب ولو كانت ظامئة، وتترك الرعى ولو كانت جائعة، فتلتفت نحو صاحبها، وتبدأ فى الحنين بإصدار صوت مميز؛ كالصوت الذى تمده شوقًا إلى ولدها تعبيرًا عن تجاوبها معه،

ومحبتها له، فتنطلق مع صاحبها حيث أراد، تاركة وراءها الماء والعشب من أجله.

ويعوِّد الرعاة إبلهم على أصوات خاصة؛ كل صوت يعنى شيئًا ما، فإذا أراد أن يجمعها لترد الماء كان له صوت مميز تعودت عليه. فإذا أراد أن يصدرها عن الماء كان له صوت آخر، فتترك الماء لتعود من جديد إلى المرعى، فإذا أراد الراعى من رعيته أن تمرح فى مراحها قريبًا من أهلها أثناء الليل، فإنه ينادى على سبيل المثال:

(بويه بويه) -أى بويضاء أو (مله مله) أى المليحاء. وكلمة (بوه) تعنى على سبيل الترخيم والاختصار البويضاء، تدليلا وتحببًا لها، وكذلك (مله مله) تعنى المليحاء، وقد يقولون كذلك: (وضحا بن عايش، وضحا بن عايش، وضحا بن عايش، يا بنيه للحجب نايش، وقرونك للحجب نايش).

(إرشره.. إرشره) أى تعالى يا شرهة وشرهة اسم ناقة من النوق، وحين تسمع النداء تترك المرعى، وتتبع ذلك الصوت الذى تعرف منه أنه يريدها أن تعود للمبيت.

وعند الفجر تحن المخاليل فى وقت واحد، والبدو يوقتون بهذا الحنين فيقولون: وقت حنين المخلول، أى مع الفجر؛ حيث تتجاوب كل الحيران والأمهات بالإرزام، فيكون هذا الوقت وقت إطلاق عقل الإبل وشد الرحول، فتجمع العقل حزمة واحدة مع بعض الشمال القديمة على غبيط الرحول أو الحداجة؛ لتشم الحيران رائحة أمهاتها فى الشمال؛ فتتبع ناقة الراعى (الرحول أو القعدة).

ولكل قطيع من الإبل نداء عام لها جميعًا فربما نادى الإبل رعيته فيقول: (أررر يالبويضا.. أريالبوى ضا.. حاء) ورعية أخرى يكون النداء عليها: (أرريا لملى حاء.. أريا لملى.. حاء) ورعية ثالثة تكون مشياعتها: (آوه الطيا.. حه أرياطا ياحه) وأحيانًا تكون المشياعة (النداء) خاصة بإبل فلان من القوم بالتحديد، مثل نداء أحدهم على إبله قائلا: (البل يا عواد آوه يا عواد).

وتصبح المشياعة التى تعودت عليها الإبل خاصة بها كأنها وسم لها فإذا اختلطت إبل بإبل أخرى، وأراد صاحب إبل منها فصلها عن باقى الإبل، فإنه يركب رحوله (القعدة)، وينتحى ناحية، وينادى على إبله بالمشياعة التى تعودت أن تسمعها منه، حينئذ تنسل منفصلة واحدة وراء أخرى، تاركة الإبل الثانية، وتتبع راعيتها إلى الجهة التى يريدها منها، ولا بد من تدريب الإبل النداء لتتجمع للعلف أو للماء

كيف يعالج البدو جرب الإبل؟!

الجرب هو أشهر أمراض الإبل؛ ولعلاج الجرب يلجأ البدو إلى طرق شتى منها:

- **انتزاع الكيس السمى من الحية، ثم يدلك بدهنها البعير الأجرب.**
- **وكذلك يدلك جلد البعير الأجرب بحشرة الذرنوح التى لا توجد إلا فى الربيع.**
- **وأيضًا بنبات العجرم والشنان.**
- **بالإضافة إلى استعمال الكبريت أيضًا.**

أو للرحيل بها، كما قد ينادى راعى الإبل على إبله حينئذ قد يصرفها عن طريق اتجهت إليه، فتغير اتجاهها على الفور، وتتبعه إلى حيث يريد، ويدرب الراعى إبله على معرفة الاسم الذى يسميها به، بحيث لو نادى على واحدة منها فإن المعنية بالنداء وحدها تهرع إليه، ولو فى الليل المظلم.

ومما يروى أن بعيرًا سُرق لبدوى وبعد أكثر من سنتين مر بإبل، فوجد بعيره فيها، فاشتكى أهل الإبل لشيخهم، فلم يقتنعوا أن البعير له، ولكن الجميع ارتضوا اقتراح الرجل: أن يأتى إلى هذه الإبل فى غبشة الفجر؛ لينادى على البعير بالصوت الذى قال إنه تعود أن يصيح به عليه، فإن استجاب إليه فهو له، وإلا فلا حق له فيما زعم.

وفى الموعد المحدد بعد الفجر مباشرة، وعلى مسافة تقارب المئة متر صوت طالب البعير تجاه الإبل، ونادى البعير بأعلى صوته، وباسمه الذى سبق أن كان يناديه به، وكانت المفاجأة حين خرج هذا البعير بعينه من بين الإبل، حتى جاء فوقف عند كتف صاحبه، ثم أخذ يتبعه ميمنة وميسرة حيث سار، فلم يتعرض له حينئذ أحد، لقد كانت هذه شهادة كافية أن البعير عرف صاحبه بعد كل هذا الوقت الطويل!

وغالبًا ما يرفع الراعى صوته بواحدة من ثلاث: أرى، أو: هاااع، أو: هووو... هووو.. ويمد صوته بكل ذلك، فتتبعه الإبل حسبما يريد من صحيته التى عودها.

كلام الإبل مع بعضها:

هذا قصة خرافية جميلة عن كلام الإبل مع بعضها تقول: «عندما كان كل شىء يتكلم، كان الحوار يسير بجوار أمه ويسألها عن أسماء الأشجار فتخبره بها، فكلما سألها: ما اسم هذه الشجرة؟ قالت له: هذه (عرفجة) وهذا (سعدان) وهذا (حمض) وهذا (رمث) وهذا (نصى) وهذا (غضا)، وهكذا حتى وصلت إلى (الروثة)، فعندما سألها عنها قالت: هذه (كل واسكت). أى أن هذه الشجرة لا ينبغى أن تخبر بها أحدًا، فيسبقك إليها ويأكلها؛ لأنها شجرة مغذية وطعمها جميل عند الإبل.

والإبل لا تصبر عن الأشجار الحمضية لأن جسمها يحتاج إليها وإلى ملحها وحمضها، وأهمها الرمث، فلا تغنيها عنه غيرها من الأشجار، لهذا ففى حالة عدم توفر هذه الشجرة فى الرعى، فإن الرعاة يطعمونها الملح؛ لأن الإبل لا بد لها أن تحمض كل أسبوعين تقريبًا، فإذا لم ترد الحمض بعدها أصيبت بالخلة؛ وهى رائحة كريهة فى فم البعير تشبه ريح الثوم؛ لهذا تنطلق الإبل تلقائيًا إلى موضع أشجار الرمث، التى تنبت فى الأرض الجلد أو الأرض الصلبة.

لمزيد من المعلومات عن الإبل العربية؛ راجع كتاب تربية الإبل العربية فى موقع
www.farmcaring.com